

سيمياء العنوان في الخطاب السردي الجزائري المعاصر - نماذج مختارة -

The Semiotics of the Title in Contemporary Algerian Narrative Discourse

- Selected Models -

أ.د. حاج جعدم

djourdemhadj@gmail.com

جامعة حسينة بن بوعلي الشلف - الجزائر

ملخص:

تروم هذه الورقة البحثية الموسومة بـ "سيمياء العنوان في الخطاب السردي الجزائري المعاصر - نماذج مختارة"، إبراز دلالة العنوان من الوجهة السيميائية، محاولاً استنطاق عناوين الخطابات السردية الجزائرية المعاصرة..

الكلمات المفتاحية: سيميائية، العنوان، الخطاب، الرواية، البنية.

Abstract:

this research paper Tagged with "The Semiotics of the Title in Contemporary Algerian Narrative Discourse - Selected Models-", aims to highlighting the significance of the title from the semiotic point of view, trying to investigate the titles of contemporary Algerian narrative discourses.

Keywords: semiotic; title, discourse; novel; structure

مقدمة:

إن المتأمل في الخطاب السردي الجزائري المعاصر، فيه عديد المزايا النصية، تجعل من القارئ /المتلقي يتماهى مع نصوصه، مزايا تخص موضوعات السرد التي تعالج قضايا المجتمع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية عامة، وأخرى تخص جماليات الخطاب السردي من مثل: الأسلبة والتناص وسيميائية العنوان.

إن الباحث عن البنية العميقة الدالة التي تؤسس للخطاب السردي الجزائري المعاصر، يجدها بارزة في سيميائية العنوان، لأنه يعد العتبة الأولى لقراءة النص، وفهم دلالاته ومضامينه ولو نسبيا، وإن شئت قل أنه بمثابة رسالة تُسهم في التواصل المعرفي والجمالي.

أولاً: مفهوم السيميائية لدى القدامى والمحدثين:

إن التأمل في تاريخ "السيميائية"، يجد أن مصطلح "السمة" كان معلوما لدى الشعوب منذ القديم، فالألم عرفته بطرق ومستويات مختلفة "منذ العهود الموعلة في القدم، عرفت مفهوم السمة، وتعاملت معه، في طائفة من المظاهر التي ربما أهمها الإشارة، واصطناع اللون، وإقامة الطقوس المتمخضة لممارسة الشعائر الدينية، والتعبير عن مناسبات الأفراح، وإبداء الألم والتوجع لدى حدوث الانزياح، ولاسيما الإغريق والعرب في ثقافتهما الكبيرتين"¹.

وعليه، سنحاول الوقوف لدى مفهوم "السيميائية" والجذور التي ينبني عليها هذا المصطلح.

1- في المعاجم العربية القديمة:

جاء في لسان العرب لابن منظور: "السُّمَةُ السِّمَةُ السِّيمَاءُ والسِّمَاءُ العلامة، سَوْمَ الفرس: جعل عليه السِّمَةَ، وقوله عز وجل: (لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين) [الذاريات/ 33-34]؛ قال الزجاج: روي عن الحسين أنها مُعَلَّمَةٌ ببياض وحمرة وقال غيره مُسَوِّمَةٌ بعلامة يعلم بها أنها ليست من حجارة الدنيا ويعلم بسيماها أنها مما عذب الله بها؛ قال الجوهري: مُسَوِّمَةٌ أي عليها أمثال الخواتيم"².

يقول ابن منظور أيضاً: "عن الجوهري أنّ السُّومَةَ بالضم علامة توضع على الشاة، وفي الحرب أيضاً، يقول: منه تَسْوَمٌ. قال أبو بكر: قولهم عليه سيما حسنة معناه علامة وهي مأخوذة من وَسمْتُ أسِماً قال: والأصل في سِيَمَا وسمي فحوّلت الواو موضع الفاء فوضعت في موضع العين، وفي التنزيل الحكيم: (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والحِث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المثاب) [آل عمران/14]."

2- لدى القدامى من غير العرب:

يُعد أرسطو طاليس أحد أقطاب التفكير الإنساني عموماً واليوناني خصوصاً، إذ نجده يفرق بين وجهي العملة اللغوية إذ يقول: " ما يخرج بالصوت دال على الآثار التي في النفس، وما يُكتب دال على ما يخرج

¹ عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومة، الجزائر، 2007، ص 146.

² ابن منظور، لسان العرب، مادة "سوم"، مج 12، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، ص 363.

بالصوت"³. ومؤداه مدى الوعي الكبير بقضيته أنّ اللغة هي شكل، دال/ ومحتوى/ مدلول، وأن الجانب المادي الفيزيائي أو ما يخرج بالصوت -على حسب تعبير أرسطو- يدل دلالة لا ريب فيها على الآثار التي في النفس، وهو لا يقصد بالآثار إلّا المعاني والأفكار التي تحملها الدوال وتدل عليها، إذ لا يقف هنا بل يتجاوز ذلك كله ومن ثمة فهي دالة على الآثار التي في النفس/ المدلول.

ولا نكاد نبرح الثقافة اليونانية حتى نجد الناقد "إيكون" يشير إلى أن تاريخ السيميائية، يعود في جذوره الأولى إلى الفكر اليوناني عامة ولدى الرواقين خاصة الذين اعتمدت السيميائيات المعاصرة على اكتشافاتهم الأولى.

"إنّ الرواقين (Stoiciens) هم أول من قال بالعلامة (Signe) دالاً ومدلولاً (-Signifiant Signifié)، وارتكزت السيميائيات المعاصرة على اكتشافاتهم الأولى"⁴.

3- السيمياء في التراث العربي:

مما لا يختلف فيه اثنان أنّ العرب مغيرهم من الأمم: قد عرفوا مصطلح "السيمياء" في حقوق معرفته كثيرة، لكن نقرّ منذ البداية أنّ أصناف الدلالة سيميائية تتصل كل واحدة منها بغرض، ومؤداه أننا لا نجد مصطلح السيمياء أو السيمياء أو السّمة، بل نجدها يدل على معاني هذه المصطلحات، والقول في ذلك: أننا نلمس ملامح السيمياء في فكرنا التراثي.

وعليه، فإنّ عثمان الحافظ، يجسد هذا المعطى فيقول: "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تُسمّى نصبة، والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصّر عن تلك الدلالات، ولكل واحدة من هذه الخمسة صورة بانية من صورة صاحبها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثمّ عن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصّتها وعامّتها وعن طبقاتها في السّر والضارّ، وعما يكون منها لغوًا بهرجا، وساقطًا مطرَحًا"⁵.

³ طائع الحدادوني، سيميائيات التأويل: الإنتاج ومنطق الدلائل، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2006، ص 67.

⁴ أريفي مشال، السيميائية أصولها وقواعدها، ترة رشيد بم مالك، منشورات الاختلاف، ص 21.

⁵ أو عثمان الحافظ البيان والتبين، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 60.

من هنا سيقف لدى الإشارة بوصفها علامة من العلامات الخمسة التي أشار إليها أبو عثمان الجاحظ، إذ ينتقل فيها من العلامة اللسانية المخصصة، إلى العلامة غير اللسانية، ممثلة في إحدى أهم مظاهرها. 'أما الإشارة فاليد، وبالرأس، وبالعين، والجاحظ والمنكب، إذ تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف، وقد يتهدد رافع السيف والسوط، فيكون ذلك زاجراً، ومانعاً رادعاً، ويكون وعيداً وتحذيراً"⁶ ومؤداه أن النص تفصيل لما يُريده الجاحظ بالإشارة، إذ يُذكر كلّ العناصر التي تمرّ من خلالها (يد، رأس، عين، حاجب، منكب..). ومن ثمة تُصبح نسقا دالاً إلى جانب النسق اللساني.

4- المنهج السيميائي الغربي:

قامت السيميائية في الدراسات الحديثة على أساس جهود كلّ من العالمين: فرديناند دي سوسير، شارل ساندرس بيرس؛ إذ يُعتبر ما قد قدماه من رؤى وتصورات الحجر الأساس الذي انبنت عليه غالب الدراسات اللاحقة، فالأول تنبأ في كتابه "دروس في اللسانيات العامة" بعلم بلغ الأهمية، أكثر شمولاً من علم اللغة، وهو علم العلامات. إذ يقول: "يمكننا أن نتصور علماً موضوعه دراسة حياة العلامات في المجتمع، مصل هذا العلم يكون جزءاً من علم النفس الاجتماعي، وهو بدوره جزء من علم النفي العام العلامات (Sémiology)"⁷.

والعلامة عند سوسير هي عبارة عن كيان ثنائي يتكون من الفيزيائية في الذهن وأثرها، وميول وهو التصور الذهني الذي ينتج عن عملية التواصل وهو القيمة التي تستبدل، لها الدوال في نفس المتكلم. وقد مثل العلامة:

أمّا الرائد الثاني للسيميائية "شارل ساندرس بيرس"، والذي يرجع إليه مصطلح سيموطيقا (Sémiotique) كان تصوره لهذا العلم أكثر اتساعاً من سوسير، فقد جعل من السيميائية الوسيلة التي من خلالها تتم دراسة أي شيء جعل من السيميائية الوسيلة التي من خلالها تتم دراسة أي شيء في هذا الوجود باعتباره علامة سيميائية يمكن قراءتها وتأويلها يقول: "لم يكن بوسعي أن أدرس أي شيء سواء تعلق الأمر بالرياضيات أو الأخلاق أو الميتافيزيقيا أو الجاذبية أو علم البصريّات أو الكيمياء، أو علم التشريح، إلا من زاوية نظر سيميائية"⁸.

ثانياً: سيميائية العنوان: الرؤية النظرية*:

يولي علماء السيماء اهتماماً كبيراً بالعنوان في النصوص الإبداعية، بوصفه علامة إجرائية في مقارنة النص الأدبي، ومؤداه أنّه من السمات الكاشفة عن مضمون النص، إذ يُعدّ من العتبات التي يستنطقها القارئ/المتلقي.

⁶ م.س، ص 61.

⁷ ابراهيم عبد الله وآخرون، معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية المعاصرة، المركز الثقافي العربي، 1990، ص 74.

⁸ م.س، ص 77.

فالعناوين "ذات وظائف رمزية مشفرة بنظام علاماتي دال على النص حتى إن كان غامضاً، ولهذا فإن فيسهم ولا شك في فهم دلائل النص حتى إن كان غامضاً، ولهذا فإن أول درجة يطوئها السيميائي في سلم النص هي استقراؤه واستنطاقه للعنوان في بنيته السطحية والعميقة"⁹.

وللعنوان وظائف تحدث عنها رومان جاكبسون (R.Jakbson)، وحضرها في وظائف، وهي "الوظيفة المرجعية، والانفعالية، والإفهامية والشعرية أو الجمالية، والتنبيهية، والانعكاسية"¹⁰. وقد أقرها محمد بنيس شيء من التفصيل. يقول: "هناك من الباحثين من نزع إلى تحليل العنوان بالإفادة من وظائف اللغة التي قال بها جاكبسون فتبين له أن للعنوان وظائف هي: "الوظيفة المرجعية (المركز على الموضوع)، والوظيفة الندائية (المركزة على المرسل إليه)، والوظيفة الشعرية (المركزة على الرسالة)" (...) وقد تتسع هذه الوظائف لدى هنري ميتران (Henrimaitterana) "الوظيفة التعينية، والوظيفة التحريضية (حث فضول المرسل إليه ومن ذاته، والوظيفة الإيديولوجية"، وهذه جميعها تنبئ عن سلطة العنوان وتروم إخضاع المرسل إليه"¹¹.

مما سبق نستنتج، أن العنوان عبارة عن رسالة يرسلها المرسل إلى المرسل إليه، وهي محشوة بشرفة لغوية، يتلقفها القارئ/ المتلقي ويحللها، ويؤولها بلغته الواصفة، ومؤداها الاتصال بين الباث (الوظيفة المرجعية)، والمتلقي (الوظيفة الندائية)، فالمؤؤل (الوظيفة الشعرية) ممثلة في الرسالة، إذ أن العتبة النصية (العنوان) بمثابة مفتاح لاختراق النص وتأويل المعنى.

ثالثاً: سيميائية العنوان في الخطاب السردي الجزائري المعاصر: الرؤية التطبيقية.

والتأمل في عناوين الخطاب السردى الجزائري الحديث والمعاصر باعتبارها أهم عتبة السردى الجزائري الحديث والمعاصر باعتبارها أهم عتبة نصية يستدعي القارئ للتعرف على المقروء الإبداعي والغوص في ماهيته والتفاعل معه قراءة وتحليلاً، يجد أن العنوان "عتبة قرائية وعنصر من عناصر النص الموازية التي تسهم في تلقي

* من أبرزها علماء السيمياء جبرار جينيت "gérard génette"، وأحد أكبر المنظرين للعتبات النصية في مؤلفيه: "عتبات" و"مدخل لجامع النص".

⁹ بلقاسم دفة، علم السيمياء والنص الأدبي، محاضرات الملتقى الوطني الأول: السيمياء والنص الأدبي، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2010، ص 39

¹⁰ بيبرو جيرو، علم الغشارة - السيميولوجيا -، ص 30.

¹¹ محمد نيس، الشعر العربى الحديث، بنياته وغبلاهما، دار توبقال للنشر، المغرب، ط2، 2001، ص 107.

النصوص وفهمها وماويها، داخل نص قرائي شمولي يُفَعِّل العلاقات الكائنة والممكنة بينهما¹²، وهو "منطقة إستراتيجية في عملية تلقي النص، وهي المنطقة الأولى بصريا ودلاليا التي فيها حدث التصادم بين القارئ والنص"¹³.

من هنا، أيضا الروائي عبد الله مرتاض في رواية "نار وكور" يوشح روايته بهذا العنوان المركب من كلمتي "نار ونور" وهو دأب مرتاضي بامتياز، حيث يوظف فيه الكاتب منطلقا تراثيا بلاغيا قديما، ومؤداه الطباق الحاصل في كلتي "نار ≠ نور" من الوجهة البديهية، وهو تشاكل بلاغي.

والتأمل في معنى العنوان المعجمي من الوجهة السيميائية الدلالية يلاحظ أن لفظة "النار" تعني اللهب الذي أشعله الثوار فوق رؤوس المستدمر، وهو دلالة على الثورة المباركة ولهبها المتشطي، أمّا لفظة "نور" فتعني من الوجهة السيميائية الاستقلال الوطني الذي ناشده القوار، وسطع في سماء الجزائر، فالكلمتان متباينتان لفظا، متجاورتان معنى، فالنور الساطع هو نتيجة حتمية للنار الملتهبة.

أمّا في روايته "وادي الظلام"، لأن قراءة واصفة لهذا العنوان من الناحية النحوية تتكون من كلمتين مركب إضافي، "وادي" مضاف، "والظلام" مضاف إليه، والأصل النحوي فيها: هذا وادي الظلام، إذ تُعرب فهي "مضاف عليه"، أمّا من الناحية المعجمية الدلالية فإن "وادي" يعني البقعة من الأرض التي تكون منخفضة، وتحيط بها المرتفعات، و"الظلام" ألحق هنا بالوادي وقد يكون ظلاما معنويا يشير إلى بعض المظالم والممارسات التي سادت بين الأهالي في القبيلة.

فالسارد يبرق للمرسل إليه/ القارئ، أنه يتحدث عن مكان يعيش فيه مجموعة من القبائل تحكمها قبيلة الجلولية "وانتم تعلمون أنّ وادي الظلام يمتد على مسافات بعيدة من نحو الشمال إلى نحو أقصى الجنوب، وهو يقسم الجلولية شطرين: شرطا شرقيا جبليا، وغابيا، وشطرا غربيا سهليا ورعويا، وهو يجري بالماء الغزير على وجهه الدهر..."¹⁴.

أما العنوان في رواية عبد الحميد بن هدوقة "ريح الجنوب" فإنه يتكون من كلمتين مركب إضافي، "ريح" مضاف، والجنوب "مضاف إليه"، والتأمل في معنى العنوان من الناحية المعجمية يلاحظ أن "الريح" رمز للعذاب

¹² محمد بازي: النوان في الثقافة العربية - التشكيل ومسائل التأويل، ص 15.

¹³ خالد حسين: شؤون العلاقات من التشفير إلى التأويل، ص 101.

¹⁴ عبد الملك مرتاض، وادي الظلام، ص 13.

وعنوان للهلاك، وأداة للقوة الإلهية، فالحاء صوتيا هي لمعلمة أو حُرقة أو عذاب، فقد أرادها الكاتب لأجل التغيير المنشود للنهوض بمناطق الهضاب العليا في المجالات السياسية والاجتماعية والتحرر من أساليب التسلط والهيمنة التغيير في سماء "الجنوب" وما تعنى الكلمة من دلالات.

وإذا ما بمننا شطر رواية "الزلزال" للطاهر وطار، يحده من الناحية النحوي، يتركب من اسم معرف تأويله: "الزلزال قام"، فلفظة "الزلزال" من هذه الوجهة "مبتدأ" لخبر محذوف تقديره "قادم" فالعنوان سيميائيا يعني "الثورة" وأي ثورة؟ قد تكون إيدولوجية.

فالعنوان "علامة عاتمة، تكسوها ضبابية، وعندما يغوص القارئ في أعماق الرواية يجد عدّة رموز، منها شخصية بولرواح، هذا الاسم يوحي في المعنى الشعبي أو المحلي بأنه سفك للأرواح، أو مصاص للدماء، وهو يرمز إلى الأفكار، أيّ الأفكار الإقطاعية الرأسمالية، وقد اختارت هذه الشخصية سبيل الانتحار بعدما ضاقت بها السبل، فكان أن وقف بولرواح على حافة جسر قسنطينة الممتد فوق نهر الرمال، ليلقى بنفسه من علو، ولم يتم انتحاره، فقد أغمي عليه، وأدركته الشرطة، لنأخذه إلى المستشفى للعلاج، والكاتب هنا -يرمز- بالشرطة إلى بعض أجهزة السلطة، وبالمستشفى على الشفاء، وعودة لورواح إلى ممارسة العمل الإقطاعي الرأسمالي¹⁵.

أما عنوان روايته "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي"، فإنه من الوجهة النحوية يُشكل جملة خبرية تامة: مبتدأ وخبر وملحق الجملة، فالولي: مبتدأ، الطاهر: صفة للولي، يعود: فعل + فاعل (محذوف تقديره هو)، وهي جملة فعلية في محل رفع خبر للمبتدأ (الولي)، إلى مقامة جار ومجرور، الزكي: صفة للمقام.

والتأمل لهذه التراكيب اللغوية: (الولي، الطاهر، المقام، الزكي)، يجده معجميا ودلاليا تحيل إلى المعنى الديني، والمنحى الصوفي، يقول السارد: "سيجد القارئ الذي ليس له ثقافة تراثية عموما نفسه مضطرا إلى مرجعة بعض المفردات والمصطلحات كما قد يجد صعوبة في العثور على رأس الخيط، وعذري أنني حاولت تقديم ملحمة وليس فقط قصة"¹⁶.

مما سبق، نستنتج أنّ "الحدث الأساسي الذي انبثت عليه الرواية هو عودة الولي الطاهر كما أن العنوان هن كان غنيا بالكثير من الحمولات المعرفية التي صرفت القراء على الإطلاع على الشعر والسباحة في الصوفية

¹⁵ بلقاسم دفة، علم السيميائ والعنوان في النص الأدبي، ص 39.

¹⁶ الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود على مقامه الزكي، ص 14.

والتدين، وتاريخ الأديان، والتاريخ العربي الإسلامي، كما أرست القارئ على واقعه المعاصر، وأوضحت له منطق الإرهابي من خلال الولي الطاهر، الذي يمثل دور الإرهابي وأمير الجماعة في الرواية¹⁷.

وعلى الشاطئ الآخر من الخطاب السردي الجزائري المعاصر، نجد محمد مفلح قد دبح روايته بعنوان "سُفَايَة الموسم"، والقارئ لها نحوياً نجدها تتكون من كلمتين مركب إضافي أيضاً "سُفَايَة" مضاف، "الموسم" مضاف إليه، والأصل النحوي فيها: هذه سُفَايَة الموسم، إذ تُعرب "خبر" لمبتدأ محذوف تقديره "هذه" أمّا من الناحية المعجمية الدلالية، فإنّ "السُفَاة" في الفصح هي شوك السنبلة، وفي الطريقة التقليدية كانت عملية الدرس التي تتلو الحصاد يهمل فيها الفلاحون إلى فرز الحبّ من "السُفَا يعون من الريح التي تذروه لحفتها، والريح "سافية" لأنها تَسْفِي التراب وما شابه وتذروه.

وعليه، فإن شخوص الرواية "نماذج بشرية كان يجمعهم يوماً مقهى "الصمود" فشتتهم اقتصاد السوق لعلمهم كانوا يدركون ما يرفضون، ولكنهم لم يعرفوا بالضبط ما يريدون، لقد أصبحوا في موسم آخر يميزه، إختيار المعسكر الاشتراكي وسقوط حائط برلين. هكذا يعود العنوان يعانق النص/ الموسم، وكأنها فترة تجسدت في نقابي يُجارب طواحين الهواء، إنه "تدار سفاية" كما سمّاه الكاتب¹⁸.

الخاتمة:

نستنتج مما سبق، أن علماء السيميائيات اهتموا اهتماماً كبيراً بالعنوان في النصوص الإبداعية بوصفه علامة إجرائية في مقارنة النص الأدبي؛ إذ أن العنوان يعد العتبة الأولى لقراءة النص وفهم دلالاته، حيث يستدعي القارئ للتعرف على المقروء الإبداعي والغوص في ماهيته والتفاعل معه قراءة وتحليلاً.

5. قائمة مصادر ومراجع البحث:

- عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومة، الجزائر.
- طائع الحداوي، سيميائيات التأويل: الإنتاج ومنطق الدلائل، المركز الثقافي العربي، المغرب.
- أريفي مشال، السيميائية أصولها وقواعدها، ترة رشيد بم مالك، منشورات الاختلاف.
- بلقاسم دفة، علم السيميائيات والنص الأدبي، محاضرات الملتقى الوطني الأول: السيميائيات والنص الأدبي، جامعة محمد خيضر، بسكرة.
- بيبرو جيرو، علم الغشاة - السيتيمولوجيا -
- محمد نيس، الشعر العربي الحديث، بنياته وغبلااتها، دار توبقال للنشر، المغرب.
- محمد بازي: العنوان في الثقافة العربية - التشكيل ومسائل التأويل.

¹⁷ سعاد عبد الله العنزي، صورة العنف السياسي في الرواية الجزائرية المعاصرة، ص 160.

¹⁸ مخلوف عامر، ألوان من الحكيم، مقالات في القصة والرواية، ص 227.

- خالد حسين: شؤون العلاقات من التشفير إلى التأويل.
- عبد الملك مرتاض، وادي الظلام..
- الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود على مقامه الزكي،.
- مخلوف عامر، ألوان من الحكيم، مقالات في القصة والرواية.